احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية ٢٠٠٦

دور الأديان في مستقبل الحضارات
أيٌّ دِين وأيٌّ دور؟

المطران د. بولس يازجي

متروبوليت حلب والاسكندرون وتوابعهما للروم الأرثوذكس

P.B. 6976 ALEPPO – SYRIE -TEL: + 963 21 4660670 - FAX: + 963 21 4660671

-WEBSITE: WWW.ALEPPORTHODOX.ORG E-MAIL: SECRETARY@ALEPPORTHODOX.ORG

جامعة حلب ٢٠٠٦

دور الأديان في مستقبل الحضارات[١]

أيُّ دِين وأيُّ دور؟

مقدّمة

يدور الكلام اليوم حول أمرَين: "عودة الدِّين" و"الأصوليّة". فهل المصطلحان يحملان المعنى ذاته؟ وهل للدِّين والأصوليّة الهدف والمنشأ ذاته؟ الألفيّة الثالثة هي ألفيّة الأديان، وهذه المقولة التي سمعناها على العتبة، باتت أحداثُ السنوات الأخيرة تؤكّدها. لقد سقطت الشيوعيّة الملحدة وعاد الشباب المسيحيّ المثقّف إلى كنيسته بثقةٍ واندفاع. وتلعب اليوم التيّارات الدِّينيّة البروتستانتيّة في أمريكا الدور الأوّل في توجيه الرأي العام. كما أعطت بابويّة يوحنا بولس الثاني مظهراً جديداً للعمل الكنسيّ يتبنّى وحدةً شاملة في العالم ومسؤوليّة كنسيّة تجاهه. أمّا في العالم الإسلاميّ فتلعب بعضُ الدول دور القيادة في الأمّة الإسلاميّة، ففي إيران انتصرت الثورة الإسلاميّة. والأحداث الأخيرة تدلّ على الثقة العامّة بالتيّارات الدِّينيّة وليس العلمانيّة. في الشرق الأدنى ازدوجت الحركات الهندوسيّة بالتيّارات القوميّة.

ومع هذه "النهضة" أو "العودة" الدِّينيّة يرى البعض أنّ ذلك يضعنا أمام مواجهة للـــ "أصوليّة" وهذا المصطلح الأخير ملتبسٌ جدّاً في الشرح والاستخدام، فيعني تارةً توضيح الهويّة، ومرّاتٍ تيّاراتٍ قوميّةً سياسيّة باسم الدِّين، وتارّة التبشير بالدِّين، ومرّاتٍ أخرى إحياء الممارسة الدِّينيّة... الخ. ولا شكّ أنّ كلّ ذلك محتملٌ تحت هذا الاصطلاح ويعودُ ذلك لنوعيّة الممارسة الدِّينيّة لأيّة جماعة.

بالمقابل ينبري اليوم بعضُ العلمانيّين إلى معاداة الدِّين ومحاربة الأصوليّة، وهنا في هذه المواجهة ليست قليلةً الحالات التي تعادي حتّى التقوى باسم مواجهة الأصوليّة، وتطالب باستقلال المجتمع والعقل عن الدِّين وقيمه ومؤسّساته ورموزه. فهل نحن أمام عالمٍ يتوزّع دينيّاً اليوم وينبئ بصراعاتٍ حضاريّة، ترسم مسيرها وحدودها الخلافات والتعدديّات الدِّينيّة؟ أم أنّنا نتطلّع إلى عالمٍ تأخذ فيه الأديان فعاليّةً تجعل من هذه التعددية ثقافةً للحريّة والمنافسة الشريفة والتسابق على الكمال والخدمة الاجتماعيّة؟

[١] مداخلة ألقيت في احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، في كلية الآداب، جامعة حلب ٢٠٠٦.

إشكاليّة: تثاقف أم تصادم؟

يميّز البُحّاث في الممارسة الدِّينيّة بين "la religion statique" الدِّين المستّقر الذي يمارس فيه الفرد والمجتمع مبادئه في إطارٍ منغلق. بينما يمارس الفرد في الدِّين المتحرّك " la religion dynamique" التصوّف في مجتمعٍ منفتح[1]. فيخشى الدِّين الثابت ما هو جديد، أي ما هو آخر. بينما يعرّف الدِّين المتحرّك ذاته من خلال مقارنته مع الآخر[2]. "لأنّ الهويّة الثقافيّة هي جدليّة حيّة بين المماثِل والمختلف، حيث يكون الأوّل هو نفسه بقدر ما ينفتح على الآخر".

إنّ التثاقف (acculturation) عمليّة تتمّ في الحركة بين الانفتاح على الآخر وبين العودة إلى الذّات. وهي حركة ثقافيّة طبيعيّة تقود إلى السموّ بكلّ ما هو إنسانيّ عامّ واختياره وطرح كلّ ما هو محلّي أو ظرفيّ في الثقافات. فليس من علاقة على الصعيد الإنسانيّ إلاّ ومن شأنها التأثير المتبادل.

يخشى البعض من التثاقف بين الحضارات، وهي الحركة الطبيعيّة، ويترقّبون "صداماً محتملاً" بينها في العصر الذي انتفت فيه الحواجز واشتبكت الثقافات في حوارٍ ومواجهاتٍ إجباريّة بسببٍ من وسائل الإعلام السريعة والبسيطة. كما يذهب صموئيل همنتغتون إلى توقّع حروبٍ مقبلة ذات طابع دينيّ، فنقرأ عند العديدين عن: جيو – إسلاميّة مثلاً، أو سواها، وكأنّ هناك سلطة عليا مركزيّة واحدة (chef d'orchestre, lobby) تخطّط لها كما تفعل المؤتمرات الصهيونيّة. هل يجعل الخلل في التبادل الاقتصاديّ في دنيا العولمة، بين دول فقيرة وأخرى غنيّة، المعاييرَ الدِّينيّة هي الأفضل لحريّة التبادل؟ إنّ اختلال التوازن في الخيرات يرجِّح اعتماد الحريّة في التثاقف الدِّينيّ على أنّها الحل الأعدل للتعبير عن الذّات وإيجاد مكانٍ في عالم العولمة للحياة.

الموضوع

١. نموّ الأديان – عودة الدِّين

كان البعض يظنّ أنّ الأديان ذاهبةٌ إلى الأفول. ولكنَّ ازدياد الطلب على الروحانية واضح، كما أنّ السعي وراء المعاني الأبديّة يتعظّم في زمن الاستهلاك والتبدّلات السريعة. أضف إلى ذلك الرغبة في بناء الأخلاق الإنسانيّة على معالم ثابتة. فبعد أن هَوتْ العلمانيّة من منصب قيادة الحياة

[1] جمانة أبو الروس مفرج، **الانتماء الدِّينيّ في ظل العولمة بين الهوية الثقافية والقيم الإنسانية، الدين والعولمة والتعددية**، مركز الدراسات المسيحية الإسلامية، جامعة البلمند ٢٠٠٠.

[2] عبود سليم، **الهوية الثقافية. العلاقات بين الإثنيات ومسائل التثاقف انتربوس**، باريس ١٩٨١.

الجماعيّة، وجاءت الحداثة كواقعٍ عالميٍّ في العولمة، بدت هذه الأخيرة للوهلة الأولى كأنّها شبحٌ سيمحو الأديان. ولكن سرعان ما ظهر أنّ الحداثة العالميّة لا تتعارض مع الوجدان الدِّينيّ الشخصيّ، لا بل لا تعوِّض عنه. كما أنّ المؤسّسات الدِّينيّة ذاتها طوّرت نفسها وصارت تؤدّي دوراً هامّاً.

إنّ "إله العلم" سقط في حيّز الوثن في الضمير الإنسانيّ، والنجاح الباهر للعلوم على المستوى التقنيّ زاد من الفصل بين الدِّين والعلم، وجعل لكلٍّ منهما إطاره المستقلّ، وبهذا تخلّص الدِّين من تديُّن العلم، الذي، أي الأخير، حاول في السنوات السالفة أن يأخذ مكان الأوّل. وتبدو ظاهرة التعلّق بالدِّين ظاهرةً روحيّة إنسانيّة.

أضف إلى ذلك أنّ البحث عن الهويّات الشخصيّة في دنيا العولمة اليوم، طرح الدِّين كالحلّ الأفضل، حيث أنّ بعض المعطيات الأخرى كالأحزاب والعلم والنقابات لم تنجح في أخذ دور التعبير عن الهويّة. وهذا يحقّ بنسبة أقلّ على المفاهيم القوميّة. إنّ الانتماءات الدِّينيّة تحافظ لشعوبها على الخصوصيّة وتنقذها من الذوبان والانصهار في ثقافة العولمة.

كما أنّ انتكاس السياسة والحركات الحزبيّة في العالم وسيطرة التجمعات المهنيّة والاقتصاديّة، أيّ تبديل الإيديولوجيّة بالاقتصاد من حيث الأهمّيّة، كلّ ذلك جعل الشعوب تتمسّك بالأفكار الدِّينيّة على أنّها الوحيدة التي ترعى القيم الإنسانيّة.

هكذا لا يبدو أنّ مستقبل الأديان متأثرٌ كثيراً لا بالعلماء ولا برجال السياسة ولا بما راج من علوم إنسانيّة، ولا حتّى برجال الدِّين ذاتهم، حيث أخذ التعلّق الدِّينيّ دور الإجابة على المصداقيّة مقابل الالتواء السياسيّ عامّةً، وعلى القيم الثابتة أمام المتبدّلات العلميّة، وعلى العطش الإنسانيّ مقابل التشريعات الاجتماعيّة الواهية والسطحيّة.

٢. العقلانيّة والحوار

من أيّ عالَمٍ نخرج وإلى أيّ عالَمٍ نذهب؟ الجواب على هذا السؤال يفرض ذاته قبل النظر في مستقبل الأديان.

لا شكّ أنّنا نخرج من عالم "العقلانيّة"، أو بالأحرى أنّنا ندخل المستقبل ونحن نحمل هذا الإرث الكبير. تعتمد العقلانيّة على كلٍّ من "العقل" و"الفرد" المسؤول. ومنها نشأت في الماضي فكرة "دولة القانون" التي اعتُبرت الشكل الأرفع للعقلنة. ومن هذه العقلانيّة انبثقت فلسفة الأنوار. وبهذه العقلانيّة يعرفُ الإنسانُ العالَمَ – الطبيعةَ حوله وينظّم حياته ومجتمعاته. إنّ التطلّع إلى نظامٍ اجتماعيّ

معقلن كان الحافزَ الاجتماعيّ والسياسيّ في القرنَين الماضيَين. هدفتْ هذه العقلانيّة إلى "التقدّم" كنتيجةٍ حتميّةٍ لحركة العقل في الزمن. وهذا ما هدف إليه الاشتراكيّون والرأسماليّون في الأيّام التي سلفتْ.

ولكنّنا ندخل في عالمٍ بات يفهم "التقدّم" (وهو ثمر العقلانيّة) تحسّناً في أرقام الإحصاءات الاقتصاديّة. ونحن نعرف ونعترف أنّ الأحسن اقتصاديّاً ليس هو دائماً الأحسن اجتماعيّاً. فالمدن الكبرى، حيث الاقتصاد فيها أحسن، مثل نيويورك أو لوس أنجلوس، هي الأكثر تعقيداً للحياة الاجتماعيّة وتعاني من صعوباتٍ لم تقدر حتّى الآن على حلّها. وكأنّنا خصّصنا كلمة تقدّم "العالم الوسائل" (الاقتصاد والمال) وليس "العالم المعاني" (عالم الثقافات والتربية والأديان).

إنّ هذا التخصيص للعقلانيّة والتقدّم في عالم الوسائل وتغريبها عن عالم المعاني يهدّد بتفكّكها، من جهة، ويسمح من جهة ثانية بممارساتٍ دينيّةٍ وثقافيّةٍ خاطئة. وما ندعوه "بالدِّين الشعبيّ"، يساعد على التجمّع حول الهويّات الثقافيّة والدِّينيّة بأعدادٍ وسهولةٍ أكبر.

لم تعد العقلانيّة هي المشرفة على تفسير الدِّين ومفاهيمه حول الطبيعة والإنسان، على العكس فقد بات الدِّين يستخدم ثمارَ العقلانيّة والوسائل المتطوّرة. فالأمريكيّون مثلاً يُطلقون اليوم حملاتهم التبشيريّة بواسطة الوسائل المتطوّرة في الإعلام والاتصال. واليوم ينسّق مسلمو إندونيسيا مع الأزهر في القاهرة عبر وسائل الاتصال الالكترونيّة الحديثة.

وما كانت تستخدمه العقلانيّة من أفكار حول "تعارض الدِّين والعلم" في بعض المواضيع فَصَلَ الدِّين فيها، وذلك حين غيّرتْ أيضاً العقلانيّةُ هدفَها، من بناء عهدٍ ذهبيٍّ اجتماعيّ يحمل من الرقيّ بقدر ما يحمل من الرفاهيّة إلى هدف تحقيق "السعادة" الفرديّة عبر "إباحة كلّ شيء وإيصال كلّ شيء" للفرد في المجتمع. عندها وبالمنطق ذاته وافقت الأديان بين مبادئ دينيّة وعلميّة كانت تبدو متعارضة. فنظرةٌ سريعة لمواقف إيمانيّةٍ ودينيّة حول مواضيع كالإجهاض وحبوب منع الحمل والاستنساخ وهندسة الجينات، التي كانت حتّى فترة قريبة محظورةً في الفكر الدِّينيّ، نراها اليوم تنتقل عند المفسِّرين الدينيين إلى حيّز ومنطق "السعادة"، أي إدراجها تحت باب "التقدّم" العلميّ وليس تحت إطارها الدِّينيّ والثقافيّ. فباتت هذه المسائل "وسائل" لتحسين الحياة وتحقيق السعادة، أكثر مما هي التزاماتٌ دينيّة محدّدة.

إنّ هذا التطوّر – "التقدّم" الرهيب في وسائل الإعلام والتواصل والتكنولوجيا أنهى زمن "العقلانيّة" في عالم المعاني وأدخلنا في زمن التواصل بين الثقافات والأديان. ففي حين، ولسنوات

قريبة، كان يُظن أنّ التقدّم التكنولوجيّ كثمرةٍ للعقلانيّة سوف يقضي على الانتماءات الدِّينيّة، نراه على العكس لم يعد يستتبع، كما في الماضي، تحوّلات على الصعيد الاجتماعيّ، هذا الصعيد الاجتماعيّ الذي صار تحت قبضة عالم المعاني من ثقافات وأديان؛ ولكن أيضاً في ظروف جديدة من المثاقفة والحوار سمحت بها، بل قادت إليها، السوقُ الاستهلاكيّة لوسائل الاتصالات.

هذا هو إذاً المحيط الواسع الذي يجتازه اليوم عالم المعاني: ويتميّز بنوعَين من المؤثّرات. الأولى هي المحاولات العديدة وغير المعدودة للتمسّك بهويّةٍ ثقافيّة وجدت في الدِّين حلَّها، وذلك في عالمٍ معولَم في اتصالاته لا يميّز بين حدود هذه الهويّات، لدرجة تظنّ الأخيرة أنّه لا يحترمها. ومن جهةٍ ثانية، فالمؤثّر الآخر هو سهولة وحتميّة التواصل بسبب التقدّم في هذه الوسائل. هذان المؤثّران هما في حوارٍ بين تأكيد الهويّة وبين احترام الآخر. هذا هو واقع الأديان.

إنّنا نؤمن بأنّ هذا الحوار حتميٌّ لا شكّ في ذلك، إنّما تأتي الأزمة من غياب آداب هذا الحوار. فما هو الأدب الذي يوافق على توكيد الهويّة ويحافظ على حريّة الحوار واعتبار الآخر؟

٣. مفهوم التسامح الدِّينيّ

"التسامح الدِّينيّ" كان شعاراً لهذا الحوار، وربّما مازال لكنّنا نلحظ تبدّلاً في معانيه. ففي حين كان ذلك يعني أو يفرض قبول معتقدات الآخر كما هي في تعامل ليبراليّ، رغم كلّ ما يمكن أن يحتويه ذلك من الصمت عن تعارضٍ كبيرٍ في التعاليم الدِّينيّة. كان هدف التسامح الدِّينيّ إذاً هو "قبول الآخر" كما هو، باختلافه وتعارضه. لكنّ التسامح الدِّينيّ اليوم يستند على مبدأ جديد هو الاقتناع بـــ "الوحدة الإنسانيّة"؛ وهذا المبدأ يقبل الفروقات كخبراتٍ مختلفة واختبارٍ خاصٍّ مغايرٍ ناتجٍ عن العلاقة الإنسانيّة ذاتها بين الله، وهو الصلاح المطلق، وبين تغاير ثقافات البشر. لهذا بينما كان التسامح الدِّينيّ يعني الوصول إلى "حسن الجوار"، صار التسامح الدِّينيّ يعني الانفتاح على الآخر في محاولةٍ ليس لحسن جواره ولا لقبوله، وإنّما لفهم خبرته الخاصّة واكتشاف المطلق منها في كلّ دين. لم يعد التسامح الدِّينيّ، وهو لغة الحوار وأدبه، يساوي بين حقّ جميع المعتقدات في الوجود على أنّها جميعها نسبيّة، بل صار التسامح الدِّينيّ نظرةً عميقة إلى ما هو جميل في الخبرة الخاصّة لكلّ دين. فنحن نتكلّم هنا عن تثاقف الحضارات وليس عن صراعات الحضارات. إنّ الاحترام لا يعني الاعتراف بل الاعتبار. ويقوم هذا المفهوم الجديد للتسامح الدِّينيّ ولآداب الحوار بين الثقافات على

الاعتراف بوجود قيمٍ مشتركة لدى الإنسانيّة تسعى إليها كلّ حضارةٍ حسبما أُوتيت به من إمكانيّات وحسبما اجتازته من ظروف.

إنّ المشترَك بين كلّ الأديان هما أمران، العبادة لله، واحترام الآخر وخدمته. أمّا الأولى فهي طرق تتغاير باختلاف الأديان. وأمّا الثانية فهي واضحة كوضوح الحاجات الإنسانيّة المشتركة. لهذا، وفي حركة العولمة الجارية، صار احترامُ الآخر هو معيار مصداقيّة الأديان، التي احتلّت الدور الهامّ اليوم بسببٍ من غياب مصداقيّاتٍ اجتماعيّةٍ سابقة كالسياسة والأحزاب.

إنّ واقع العولمة اليوم، يبسط، أمام كلّ الناس وفي كلّ مكان، تعاطي أتْباع دينٍ معيّن أمام أتْباع جميع الأديان الأخرى، وذلك بما تملكه العولمة من وسائل اتصالٍ وإعلام. هذا الواقع يضع كلّ دينٍ تحت الامتحان، حول مصداقّية احترامه للآخر، لا في تعاليمه هنا أو هناك، بل في مجمل نظرة أتْباعه للآخرين.

تحتلّ وسائل الاتصال والعلوم العقلانيّة اليوم دور الخادم الأفضل لتحقيق هذا الحوار بين الثقافات. وتؤمن أنّ ما يخافه البعض من مظاهر صراعاتٍ وصداماتٍ ناتجةٍ عن اللقاء السريع والأوّل، الذي لم يلقَ دائماً وفي كلّ مكانٍ الوعي الكافي لدى بعض أتباع الأديان بين ثقافاتٍ مختلفة، ما هو إلاّ عتبةٌ باردةٌ على باب زمنٍ سيكون محيطُه حريةَ الإيمان والخيار، وزمنٍ لم تعد فيه سياسة التقوقع ممكنةً للحفاظ على الهويّة، وإنّما هو زمنُ إعادة صياغة الهويّة بناءً على معطيات ليست هي الموروثة من محيطٍ قديمٍ مغلقٍ فقط بل المطروحة اليوم في كلّ مكانٍ من مصادر ثقافيّةٍ متعدّدة.

دين المستقبل هو الحوار، الحوار الحرّ، بمعنى حريّة الخيار وعمق الفهم الدِّينيّ لكلّ إنسانٍ في دينه ومن أديان الآخرين. إنّه زمنٌ سيقود فيه هذا الحوار الحرّ إلى شيءٍ من الفوضى في البداية، ولكن إلى ما هو أهمّ في النهاية، ونعني بذلك أمرَين:

١. اختبار الدِّين ليس في عقائد جافّةٍ مغلقة ولا في تقاليد شعبيّة، إنّما في جوهره أي في إبراز وعيش الركيزتَين الأهمّ منه وهما: عبادة الله بالرّوح والحقّ وأيضاً محبّة القريب كمحبّة الذّات.

٢. اختبار حريّة الخيار في ممارسة كلّ إنسانٍ لدينه ولفهم واعتبار الأديان الأخرى. أي بكلمةٍ مختصرة بناء الالتزام الدِّينيّ على القناعة الإنسانيّة وليس على الانتماءات الطائفيّة.

وهذا يُؤذن بعهدٍ يعود فيه القول: "الدِّين لله والوطن للجميع" حقيقةً لا بدَّ منها، وهي دين وطريقةُ التواجد الجديد.

خاتمة

هذا هو المستقبل الآتي في دهر العولمة والتقدّم والمنطق وما يقابله من نزاعاتٍ في الانتماء والهويّة. حين لا تُلغي الهويّةُ الشخصيّةُ الآخرين، بل تعرف ذاتها بمقدار ما تعرفهم، وتُبلور ذاتها بمقدار ما تفهمهم. الطريق اليوم إلى تأكيد الذّات ليس الانتماء الموروث المغلق الطائفيّ إلى دينٍ دون سواه، بل هو بناء الذّات انطلاقاً من الدِّين والمذهب والثقافة **الموروثة** باتجاه الثقافة والدِّين كحياةٍ بشكلها **المنشود**، وهذا الشكل الأخير لا يأتي من قراءة الذّات فقط بل من فهم كلّ مطلقٍ وخيرٍ في خبرات الآخرين، بحيث يحافظ دين المستقبل على الهويّة ويلاقي بالمقدار ذاته الأوّل بالآخرين، في قبلة السّلام.

المراجع

جمانة أبو الروس مفرج، **الانتماء الدِّينيّ في ظل العولمة بين الهوية الثقافية والقيم الإنسانية، الدين والعولمة والتعددية**، مركز الدراسات المسيحية الإسلامية، جامعة البلمند ٢٠٠٠.

عبود سليم، **الهوية الثقافية. العلاقات بين الإثنيات ومسائل التثاقف انتربوس**، باريس ١٩٨١.